د. انور عبد الملك

ثلاث رسائل حول الاستعمار الصهيوني

اعتاد الباحثون في قضايا الصهيونية أن يسلموا بعدد من الرسائل الصادرة من مراكز الاستعمار في الغرب وكأنها رسائل « علمية » لا مفر من التسليم بها ، ولعل مؤتمر بغداد ينعقد في ظرف تاريخي اكثر تعقيدا مما شاهده النضال العربي منذ انشاء الدولة الصهيونية . فلعل الاوان قد آن لفحص تلك الرسائل والمسلمات بدقه والفوص في اعماقها .

١ ــ تقول الرسالة الاولى : ان اساس الازمة اصلا ــ الحرب والسلام في الشرق العربي ــ انما هو « قضية فلسطين » . وعندنا ان الواقع والتاريخ معا لا يؤكدان ان قضية فلسطين هي اخر حلقة واخطرها وان لم تكن اهمها ، في مسألة الشرق العربي .

أ ــ الواقع والتاريخ يؤكدان ان المنطقة المعروفة الآن في الغرب « بالشرق الاوسط » ــ شرق الامة العربية وكذا جنوب شرق اسيا ــ كانت منذ اكثر من خمسين قرنا منطقة الصراع المصيري الرئيسي بين دول الشرق وحضاراته من ناحية ، والغزاة الاتين من الشمال من ناحية اخرى .

كان هذا مغزى حكم رمسيس وطحتمس . وكان هذا مغزى غزوات الاسكندر المقدوني . وكان هذا مغزى الفتوحات الاسلامية ، ومن بعدها حروب الاستعمار العنصري الصليبي الوافد من اوروبا . وكان بالضبط مغزى التاريخ العربي والشرقي كله منذ القرن الخامس عشر حتى اليوم : وفي كلمة كانت وجهة الغرب الحضرية وحروبه ، وغزواته ، واهدافه السياسية والدينية والايديولوجية والفكرية والاقتصادية كلها تهدف الى شيء واحد . الا وهو تحطيم كافة المحاولات الهادفة الى انشاء دولة عربية في قلب الحضارة الشرقية الاسلامية .

كي تستطيع اوروبا ان تسود وتهيمن بالسلاح والفكر .

ب ــ ان الواقع والتاريخ يؤكدوان انه ، ابتداء من اشتداد ازمة النظام العالمي وفي مواجهة اشتداد الموجة الثورية داخل الحركة الوطنية التحررية العربية بعد حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ ، كان لا بد من اقامة السد تلو السد : اتفاقية صدقي ــ بيفن حول اقامة الحلف العسكري في الشرق الاوسط . ثم اقامة حلف بغداد بعده . ثم كسر الحكم الوطني بقيادة مصدق في ايران الشقيقة . ثم ، في نهايه المطاف ، وبناء على بدايات نشأت منذ نهاية القرن التاسع عشر ، تقسيم فلسطين في ٤٧ وانشاء الدولة الصهيونية على ارض فلسطين لتكون قلعة للاستعمار ورسولا للغرب ، وسوطا ضد حركة التحرر والوحدة في الوطن العربي .

ج ــ ان الواقع والتاريخ ، منذ طلائع النهضة العربية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، يؤكدان هذا المعنى بشكل قاطع . فقد تحالفت دول اوروبا كلها ، دون استثناء ، لكسر شوكة محمد علي الذي جعل مصر اولى دول الشرق كله اقتصاديا وحربيا وثقافيا ، نصف قرن قبل اليابان في عصر ميجى . وما ان انكسرت دولة محمد علي حتى انطلقت دول اوروبا تحتل جميع اقطار الامة العربية بالنار والسلاح والتدمير والارساليات والمرتزقة والبنوك ، الى ان اصبحت الامة العربية كلها محتلة حوالي عام ١٨٨٢ . ثم تكررت موجات التسطو والغزو الاستعمارية وتركزت بشكل اساسي حول مصر ، دولة وشعبا ، بوصفها قلب التحرك العربي ، من معاهدة لندن عام ١٨٤٠ الى حرب يونيو ١٩٦٧ ، اي من محاولة كسر محمد علي الى محاولة كسر جمال عبدالناصر .

د ـ وجملة القول : ان الحرب والسلام في الشرق العربي ، ان الازمة في الشرق العربي ، لم تنشأ ابتداء من قضية فلسطين ، وان كانت مأساة فلسطين قد جاءت تؤكد عمق الازمة في الشرق العربي . ولكن جوهر الازمة انما هو : اصرار الغرب كله ـ من الصليبيات الى الامبريالية والصهيونية ، من مملكة القدس الى دولة العنصرية الصهيونية ـ على تقويض اركان القوة الشرقية بقيادة العرب في منطقة البحر الابيض وشمال افريقيا وغرب اسيا . وهذه السياسة معناها بشكل واضح ودقيق ان رسالة الغرب الحضارية تكمن في منع قيام دولة شرقية عصرية في هذه المنطقة هي دولة الامة العربية المتحدة . وهي الرسالة التي تقتضي في المقام الاول وبشكل متصل دون هوادة ان يعمل الغرب على حصار وعزل مصر، بوصفها المركز الطبيعي للامة العربية ، وحصارها واستنزاف قواها ، في الوقت نفسه الذي يثير فيه الخلافات الاقليمية والانقلابات والازمات في كل ارجاء الامة العربية .

هـ ـ ومعنى هذا بكل دقة ان الواقع والتاريخ يحتمان علينا الا نعكس الاية لاسباب عاطفية لها مكانتها ، بل ان ندرك سلم الاولويات ، فلا تبذر طاقاتنا في التركيز على ما هو ثان ، دون الاساسي . وهذه الرسالة الخاطئة هي ، بالضبط تلك التي يبشر بها ابواق الغرب لتضليل الطلائع العربية ، وخاصة المثقفين ، واضعاف التحرك العربي في صميمه وحول مركزه الحضاري والسياسي والحربي .

٢ ـ والرسالة الثانية التي يراد لنا ان نسلم بها هي :
« ان الصهيونية ليست الا عميلة وطليعة للاستعمار الامريكي » .

ان الواقع والتاريخ يؤكدان مجموعة من الامور لا بد من تبنيها كي ندرك عمق وجبروت العدو الذي يحاربنا .

أ ـ والنقطة الاولى انما هي ان الصهيونية ليست الا اخر واخطر حلقة في سلسلة متصلة ، مستمرة من العدوان الغربي ضد الشرق العربي . ان محاولة فهم الصهيونية على انها ظاهرة عنصرية استعمارية « منفردة » يؤدي بالفكر السياسي العربي الى الهوان . فالصهيونية ليست الا الوجه المعاصر الاكثر عنصرية والاكثر عدوانية للاستعمار الغربي ضد العرب عبر التاريخ . وهي ايضا الحلقة الاكثر صراحة التي تكشف بشكل استفزازي لا يمكن تغطيته عن حقيقة القوى المعادية للامة العربية .

ب ـ ان الغرب المعاصر له نظام سياسي وهو النظام المعروف بحلف شمال الاطلسي . ان جميع دول اوروبا وشمال امريكا دون استثناء اعضاء في الحلف السياسي الاطلسي ، وكلها الا واحدة اعضاء في الحلف العسكري. اي ان الغرب كله يأتمر بأمر المركز الاستعماري الامريكي، الذي حل محل الاستعمار التقليدي البريطاني والفرنسي ... الخ . ان انشاء الدولة الصهيونية تم ابتداء من قرار ٤٧ للجمعية العامة للامم المتحدة وهو القرار الذي تقدمت به ، في آن واحد ، بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتي، ووافقت عليه جميع الدول الغربية دون استثناء . ان العلاقات الودية القائمة بين الدولة الصهيونية وبين كتلة الدول الاشتراكية الاوروبية كادت تفوق مستوى الصداقة القائمة بين الصهاينة ودول الغرب الاستعمارية الرأسمالية حتى حرب السويس سنة ٥٦ . وعندئذ فقط بدأ الاتحاد السوفييتي ينحو نحو الحركة الوطنية العربية بقيادة جمال عبدالناصر ، ثم يهتم بالقومية العربية وحركات التحرر في العراق والجزائر واليمن وسوريا وفلسطين .

ان هيئة ضباط الجيش الصهيوني معظمها من ضباط الدول الشرقية المهاجرين حتى اليوم . ان تسليح الجيش الصهيوني كان مصدره الاساسي اوروبا حتى سنة ٥٦، ثم اصبح امريكيا في الاساس ، وهو اليوم يتكون من ترسانة رهيبة تسهم فيها جميع دول الغرب وكذا دولة جنوب افريقيا العنصرية النازية .

جـ ـ وقد بلغ نفوذ الجهاز الصهيوني داخل الغرب كله ان استطاع ان يلعب دورا رئيسيا في القضاء على قيادة ديغول في فرنسا سنة ٦٨ ـ ٦٩ ، وان يعزل القيادة الامريكية المنفتحة على الصين والعرب والوفاق مع الاتحاد السوفييتي في ازمة ووترغيت . وهو اليوم يعمل بشكل دائم على تعبئة الرأي العام ضد الاتحاد السوفيتي بوصفه دولة تضطهد اليهود ، وضد الصين بوصفها دولة عنصرية تتصرف بطريقة بربرية ، والهدف الرئيسي هنا انما هو كسر سياسة الوفاق بين امريكا وروسيا ، وجر الترسانة الامريكية جرا الى خدمة مصالح الاستعمار الصهيوني المتجبر على رأس وفي قلب الغرب كله او بالاحرى في قلب القيادات السياسية والفكرية والاقتصادية.

د ـ وجملة القول : ان الاستعمار العنصري الصهيوني استعمار عالمي قائم بذاته ، وليس اداة لاستعمار غربي محدد هو الاستعمار الامريكي .ان الاستعمار العنصري الصهيوني هو اليوم اخطر انواع الاستعمار الغربي قاطبة ، ليس فقط ضد العرب وانما ضد تعقيل العلاقات الدولية ، وضد التعايش السلمي ، وضد اعادة تشكيل موازين القوى والنظام الاقتصادي العالمي الجديد ، ما لم يكن لهذا الاستعمار الصهيوني بالذات دور الهيمنة في قلب العالم كله . ومن اجل هذا يعمل اليوم الاستعمار الصهيوني حليفا رئيسيا ـ لا اداة او وكيلا ـ للجبهة الاستعمارية العالمية كلها بقيادة امريكا .

٣ ـ الرسالة الثالثة التي يراد للعرب ان يؤمنوا بها وكأنها من المسلمات : ان حلفاء الامة العربية يتمثلون في تكوينات اليسار في الغرب وخاصة المثقفين منهم .

ان الواقع والتاريخ يؤكدان ما يلي :

أ ـ ان القوى الرئيسية صاحبة المصلحة في حرب التحرر الوطني ضد الاستعمار تكمن في الاساس في حركات شعوب الشرق ، في حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، كما يشهد على ذلك تاريخ عصرنا يوما بعد يوم دونما جدال .

ب ـ ان القوى الثانية ، من حيث الدور التاريخي ، وان كانت عظيمة الفاعلية ، تكمن في مجموعة الدول الاشتراكية ، وكذلك تتكون من مجموعة الاحزاب « الدول » وليس الحركة العمالية العالمية ، اذ ان هذه الدول الاشتراكية هي صاحبة المصلحة العملية في اضعاف الاستعمار واقصائه من مكانة الهيمنة وتوسيع رقعة نفوذها وانتصارها تحت لواء الاشتراكية . ان الحركة العمالية العالمية التي يطلق عليها احيانا الحركة العالمية الاشتراكية تتكون في الاساس من هذه المجموعة من الدول الاشتراكية ، وكذلك تتكون من مجموعة الاحزاب والحركات الشيوعية والاشتراكية والنقابية في دول الغرب . ومن الملحوظ ان هذا القطاع بالذات هو الذي يدعي لنفسه مكان الصدارة في معاداة الصهيونية ، دون جبهات الدول الاشتراكية . وواقع الامر ان قوى اليسار في الغرب تتكون من مجموعتين : فهنالك اولا مجموعة من الحركات العمالية والشعبية والكادرات التابعة لها ، وهي مجموعة وطنية تقدمية لعبت وما زالت دورا حيويا في تاريخ الغرب المعاصر ، على هدي رسالة لينين وغرامشي وتولياتي وتوريز وغيرهم من الاعلام .

وهنالك فئة اخرى من الكادرات تختلف تماما عن هذه المجموعة الاولى ، الا وهي غالبية فئة المثقفين الذين جاءوا للحركة الاشتراكية ابتداء من معاداة الفاشية والنازية العنصرية المعادية للسامية في الثلاثينات ، ومعظمهم يتسمون بضعف الجذور القومية والايمان بالاممية المتنكرة ، في رأيهم ، للقومية . وهم الذين يمثلون اليوم ابرز اسماء الفكر اليساري في الغرب . وهم الذين يعملون اليوم بشكل دائم لعزل المثقفين العرب عن طرح قضايا الثورة الاشتراكية طرحا قوميا ، وطنيا ، وحدويا ، وهم الذين يعملون على اضعاف الجبهات الوطنية المتحدة داخل الامة العربية باسم قدسية الصراع الطبقي واولوية التضامن بين رجال اليسار في كل مكان ، وفي الدولة الصهيونية والدول العربية على وجه التخصيص .

تلك هي سياسة الدولية الرابعة التروتسكية المعروفة ، وهي التي دوما كانت لسانا واداة ، وقناعا وعميلا ، وممثلا للصهيونية الكوسموبوليتية ، ضد شعار الاشتراكية في الدولة الواحدة ، وضد شعار الجبهة الوطنية المتحدة ضد الاستعمار ، وضد سياسة وحدة الامة العربية ضد الامبريالية الصهيونية العنصرية . وراء هذا القناع تكمن قوى العدو الضاربة الرئيسية في المقام الاول والاخطر .

* * *

٤ ـ اليوم تدفعنا الرسائل الثلاث الرئيسية الخاطئة الى تحديد سياسة اتجاهية للعمل العربي في المرحلة التي بدأت بشكل ساطع في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وأراد لها الاستعمار العالمي الازمة والضياع .

أ ـ الاتجاه الحيوي انما هو الاعتماد على النفس والاعتماد على القوى الذاتية ، تجميع الطاقة العربية على اوسع نطاق وبشكل صبور مطرد على اساس انها الاداة الحيوية والسلاح الرئيسي لتحرير الارض العربية وتحقيق النهضة الحضارية للامة العربية في اتجاه شعبي تقدمي .

ب ـ الاتجاه الثاني بعد الوحدة العربية ، انما هو في اقامة احلاف الامة العربية في المقام الاول مع حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية على قدم وساق مع مثل هذه الاحلاف مع مختلف جبهات الدول الاشتراكية دون تمييز ، بحيث تعمل الامة العربية كعنصر موجه فعال في عموم الجبهة التقدمية العالمية .

ج ـ الجانب الاخير يتعلق بقضايا الفكر الاجتماعي والسياسي العربي . لقد آن الاوان لكي يمسك العرب بمفاتيح النظرية ومناهج التحليل والمفاهيم والتصورات الفلسفية العامة بين ايديهم . ومعنى هذا ان المعركة المصيرية ضد الاستعمار العنصري الصهيوني تقتضي في المقام الاول ان يصبح العرب على وعي بمعركتهم التاريخية وعيا قوميا حضاريا ثوريا متميزا ينطلق من تراثهم التاريخي العظيم ، ويهتدي بدروس خصوصيتهم الاصيلة ، ويستعمل طاقاتهم وكادراتهم استعمالا جريئا رحبا .

ان التحدي العنصري الصهيوني معناه انه لا سبيل لتحقيق نهضتنا الحضارية الا اذا ادركنا ان السيطرة على الاقتصاد والبترول على ارض الوطن وموارد الامة ... تعني ايضا سيادة فكرية كاملة ، وتوجيه قومي بناء للفكر العربي في كل مجال .

وليست ورقة اليوم الا اسهاما متواضعا في هذا السبيل .